12

النقب، النائي هناك!

عودٌ على بدء...

وأعود إلى الرجوع الآخر، هذا الذي ظننت أني خلفّته ورائي وبت إنسانة جديدة. فلسطين، أحاول ثانية الاقتراب منكِ كلك، تَلمُّسُكِ بعد كل هذه السنوات، تقديم ابني لك.

سنوات مرت، صبغتْها كل الألوان، أبيض، رمادي... وغيرها، لا أبالي، ما يهمّني أني مسلّحة بكل ما يلزمني من أوراق أنا وأطفالي. أريد لهم أن يتنقلوا بحرية، ألا يُحجزوا على حدود البلاد كما حُجزت. منذ فترة تطنّ رحلة العودة في رأسي وتجثم على صدري، يجب أن أعود أنا العطشى للرجوع المتلهفة له، أنا وافتقادي الذي لا حدّ له.

ها هي الفرصة تجيء. يدعوني صديق من القدس الشرقية لزيارتها. قضيت على كل ما يثبّط همتي واشتريت بطاقة لي ولابني. كنت مصممة على أن يصحبني أحد من أسرتي ليزيد قدرتي على التحمل. كان ابني ذو الستة عشر عامًا يعبر فترة حرجة يثقلها القلق والتساؤلات، ليس فقط بسبب الجوّ المسموم في فرنسا، كانت له حساسيته الخاصة وكان كفارس يريد أن يبصر عن قرب هذا الذي اغتصب بلد أمه، ليصطدم به ربما... لكن الآن سيكون عليه التزام الهدوء!

في طائرة الخطوط السويسرية، لم نكن نختلف عن المسافرين الآخرين، لا شيء يفرقنا ظاهريًا عنهم. كانوا في معظمهم من اليهود متعطشين ومتلهفين "ليطلعوا" للبلد. يأكل أغلبهم طعامًا كاشير (حلال) في أوعية كاشير وحين تسقط شوكة مثلًا أو سكينة على الأرض يثيرون ضجيجًا ويدعون أحدًا من طاقم الطائرة لتغييرها، فلم تعد حلالًا! يبدي مظهر بعضهم انتمائه الديني على الرأس يضع مثلًا طاقية وعلى الكتفين وشاحًا أبيض مخططًا بالأزرق وعلى الجبين آلة فيبدون كمستكشفين من العصور القديمة. يفضّل هؤلاء البقاء واقفين غير عابئين بارشادات طاقم الطائرة. قضيت وقتًا مسليًا وأنا أراقبهم وأفكر بأن وجهتنا واحدة أنا وهم بملابسهم الغريبة وتجهيزاتهم وبهذا الخوف الذي يبدو أنه يسكنهم -من الطائرة أو من شيء آخر- وانتابني شعور غامض نحوهم لا يخلو من عاطفة ما وشيء من فضول! نظرات الجالسين بقربنا متواطئة معنا وكأننا شركاء في المصير، لدرجة أن أحدهم خاطبنا قائلًا:

– لا تخشوا شيئًا، سنصل قريبًا إلى مكاننا الحبيب والرائع. هناك، سترون الفرق وتنعمون بمعاملة مميزة، ستلمسون هذا وترونه، نعم سترونه.

كانوا متاكدين أننا منهم، ولم يكن ليخطر على بالهم أبدًا أننا من الآخرين! من هؤلاء الذين في الطرف الآخر، أعداؤهم!

بيد أن جاري انتفض على حين غرة، لقد استرق نظرة على جواز سفري. اتخذ وضعية الدفاع بعد أن كان لغاية اللحظة يرمقني بنظرات متضامنة وحانية. كنت أملأ استمارة الدخول وأكتب في خانة مكان الولادة ما لا يُكتب: "غزة"! آه يا للفظاعة، غزة الرهيبة، غزة الملعونة. توترت الأجواء على الفور، استدار جاري وولى لي ظهره بعدوانية جليّة. ثم قرر ترك مقعده فتحرك وهو يتجنب النظر إلينا ومحاولًا أقصى جهده ألا يلمسنا. توجّه نحو الآخرين وبدأوا همسات هبت معها "ريح" من البلبلة على متن الطائرة، لقد اشتمّوا عدوًا! ما الذي بوسعهم فعله؟ ليذهبوا إلى الجحيم! الآن بات كل منا يوجّه نحو الآخر نظرات متحفزة حذرة. باستثناء هذا الشعور المتبادل بعدم الارتياح والقلق لم يكن ثمة ما يخشى حدوثه. على أي حال كنت أنتظر صعوبات في هذه الرحلة وها هي قد بدأت... هذا كل شيء.

وصلنا مطار تل أبيب عند الرابعة صباحًا وكان جنود مسلحون ينتظروننا على باب الطائرة. الآخرون، شعروا بالراحة أخيرًا ومروا على حاجز شرطة الحدود قبلنا كما توقعت. أما نحن فقضينا ساعتين نتنقل بين كوة وأخرى ومن غرفة تحقيق إلى قاعة انتظار حتى سُمح لنا بالعبور أخيرًا. في الحقيقة

كنت أنتظر ما هو أسوأ، وفيما كان ولدي يجاهد بجانبي لقمع غضبه لم أشعر بأدنى صدمة أو شعور خاص.

كان التاكسى في انتظارنا، حين رأيت سائقها العربي كنت على يقين أنه سيباشر حديثًا معي ويبتسم لي ويستقبلني بكل هذه التعابير والتحيات التي يُغرم بها العرب عادة. لا شيء من هذا حصل، لعله شخص لا يميل للمحادثة، أو... بلا! ربما كان نصف نائم أو ضجر من كل ما مرّ على رأسه!

عبرنا طريقًا سريعًا يشبه كل الطرق في كل مكان في العالم العربي وغير العربي، وكانت الحرارة 28 درجة مئوية.